

تأثير الذكاء الاصطناعي والخوارزميات على السلوك الانتخابي وتوجيه الإرادة السياسية - دراسة تحليلية مقارنة

The Impact of Artificial Intelligence and Algorithms on Electoral Behavior and the Shaping of Political Will: A Comparative Analytical Study

الدكتور: شمراح عبد المنعم،

دكتور في القانون العام والعلوم السياسية

المخلص

تبحث هذه الدراسة في أثر خوارزميات الذكاء الاصطناعي والاستهداف المجري للناخبين في توجيه السلوك الانتخابي وإعادة تشكيل الإرادة السياسية في البيئة الرقمية. وتركز على آليات تحليل البيانات الضخمة والتنميط النفسي، ودور فقاعات الترشيح وغرف الصدى والتزييف العميق في التأثير على الرأي العام وتعميق الاستقطاب السياسي. كما تستعرض الدراسة نماذج تطبيقية، من بينها تجربة كامبريدج أناليتيكا والتضليل الخوارزمي والجيش الرقمية والتزييف العميق في عدد من الاستحقاقات الانتخابية. وتقدم مقارنة بين المقاربة الأوروبية القائمة على الحكامة التنظيمية وحماية الحقوق الأساسية، والمقاربة الأمريكية التي تمنح وزناً أكبر لحرية التعبير السياسي. وتخلص الدراسة إلى ضرورة تطوير أطر قانونية ورقابية تضمن الشفافية الخوارزمية، وتحمي البيانات الشخصية، وتضمن نزاهة الانتخابات واستقلالية الإرادة الحرة للناخب.

الكلمات المفتاحية: الذكاء الاصطناعي؛ الانتخابات؛ الخوارزميات؛ الاستهداف المجري؛ السلوك الانتخابي؛ التزييف العميق؛ الديمقراطية الرقمية.

Abstract

This study examines the impact of artificial intelligence algorithms and political microtargeting on electoral behavior and the formation of political will in the digital environment. It focuses on big data analysis, psychological profiling, filter bubbles, echo chambers, and deepfakes as emerging mechanisms capable of influencing voters and intensifying political polarization. The study also analyzes several practical cases, including Cambridge Analytica, computational propaganda, digital armies, and deepfake-based political disinformation in different electoral contexts. It further provides a comparative analysis of the European regulatory approach, which emphasizes fundamental rights and digital governance, and the American approach, which places greater emphasis on the constitutional protection of political speech. The study concludes that effective electoral integrity requires stronger algorithmic transparency, data protection, regulatory oversight, and safeguards for voters' autonomy and free political choice.

Keywords: Artificial Intelligence; Elections; Algorithms; Political Microtargeting; Electoral Behavior; Deepfakes; Digital Democracy

مقدمة:

تشهد الأنظمة السياسية المعاصرة تحولاً بنوياً ناتجاً عن التداخل العميق بين التقنيات الرقمية المتقدمة والعمليات الديمقراطية، وإذا كانت الوسائط التقليدية كالتلفزيون والصحافة المكتوبة قد مارست دوراً تاريخياً في صياغة الرأي العام، فإن ظهور نظم الذكاء الاصطناعي والخوارزميات التنبؤية قد أحدث نقلة نوعية في أساليب إدارة الحملات الانتخابية وتوجيه السلوك السياسي للناخبين. 256

إن اعتماد العملية السياسية الحديثة على البيانات الضخمة باعتبارها المورد الاستراتيجي والأصل المعرفي الأساسي، سمح للفاعلين السياسيين والشركات المتخصصة في الاستشارات السياسية بالانتقال من الخطاب السياسي العام والموجه للجماهير العريضة إلى الاستهداف السلوكي المجبري، بحيث تعتمد هذه الآلية على جمع ومعالجة الكميات الهائلة من الآثار الرقمية التي يتركها الأفراد يومياً عبر منصات التواصل الاجتماعي ومحركات البحث، وصياغة بروفيلات نفسية وسياسية دقيقة لكافة شرائح الناخبين. 257 ومن جانب آخر، أدى الاعتماد المكثف على أتمتة المحتوى والبرمجيات الذكية إلى ظهور ظواهر تؤثر سلباً على الممارسة الديمقراطية؛ وفي مقدمتها "فقاعات الترشيح" (Filter Bubbles) و"غرف الصدى" (Echo Chambers)، والتي تعمل على هندسة البيئة المعرفية للمواطن من خلال تعريضه المستمر لآراء وتوجهات تتوافق حصراً مع انحيازاته المسبقة الشيء الذي يساهم في تغذية الاستقطاب السياسي وتآكل المساحة المشتركة للحوار العقلاني إلى جانب التحديات الجسيمة التي يطرحها البروز السريع لتقنيات الذكاء الاصطناعي التوليدي والتزييف العميق (Deepfakes)، والتي تمس جوهر نزاهة العملية الانتخابية وسلامة الإرادة الوطنية. 258

إشكالية الدراسة:

في ظل التطور المتسارع لتقنيات الذكاء الاصطناعي والخوارزميات، وما أتاحتها من إمكانيات متقدمة لجمع البيانات الشخصية وتحليلها وتصنيف الناخبين وفق خصائصهم وميولاتهم السياسية والسلوكية، أصبحت إمكانية التأثير في السلوك الانتخابي وتوجيه الاختيارات السياسية أكثر اتساعاً وتعقيداً. وقد كشفت قضية Cambridge Analytica في الولايات المتحدة الأمريكية عن الإمكانيات التي تتيحها البيانات الضخمة والتنميط النفسي والاستهداف المجبري في توجيه الرسائل السياسية نحو فئات محددة من الناخبين. كما أدى انتشار تقنيات التزييف العميق والمحتوى السياسي المؤلّد بالذكاء الاصطناعي إلى تعقيد البيئة المعلوماتية التي يتخذ فيها المواطن قراره الانتخابي، بما يثير تحديات متزايدة أمام نزاهة العملية الانتخابية واستقلالية الإرادة السياسية للناخب.

وانطلاقاً من ذلك، تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول السؤال الآتي:

إلى أي مدى تؤثر خوارزميات الذكاء الاصطناعي وتقنيات الاستهداف المجبري في السلوك الانتخابي وتوجيه الاختيارات السياسية للناخبين، وإلى أي حد تستطيع الأطر القانونية والأخلاقية القائمة الحد من مخاطر هذا التأثير بما يضمن نزاهة العملية الانتخابية ويحيي الإرادة الحرة للناخب، دون المساس بحرية التعبير والحقوق الرقمية؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية المركزية عدد من الأسئلة الفرعية، من أبرزها:

- ما الآليات التقنية والنفسية التي تعتمد عليها الخوارزميات وتحليل البيانات الضخمة في التأثير في القرار السياسي

256 الجلال، عصام، الذكاء الاصطناعي وتأثيره على العملية الديمقراطية والانتخابات: دراسة تحليلية في الضوابط والأطر القانونية. المجلة العربية للعلوم السياسية والقانونية، العدد 14، السنة 2022، الصفحة 45.

257 شريف محمد عبد السلام، تعدين البيانات والاستهداف المجبري للناخبين في الحملات الانتخابية الحديثة: دراسة في الاتصال السياسي الرقمي. المجلة المصرية لترشيد الإعلام، العدد 58 السنة 2021 الصفحة 112

258 العجي خالد بن فهد، التزييف العميق وتضليل الرأي العام: التحديات القانونية والأخلاقية للذكاء الاصطناعي التوليدي في المجال السياسي. مجلة الحقوق والعلوم القانونية، العدد: 11، السنة: 2023، الصفحة: 201-

لِلناخب؟

- كيف تساهم تقنيات الاستهداف المجهري وفقاعات الترشيح وغرف الصدى في إعادة تشكيل الرأي العام وتعزيز الاستقطاب السياسي؟
- كيف تؤثر تقنيات التزييف العميق والمحتوى السياسي المُولّد بالذكاء الاصطناعي في قدرة الناخب على تكوين إرادة سياسية مستقلة؟
- ما الدروس المستفادة من التجارب الدولية المقارنة في مواجهة الاستخدامات الرقمية المؤثرة في العملية الانتخابية؟
- إلى أي مدى تكفي الأطر القانونية والتنظيمية القائمة لضبط استخدام الذكاء الاصطناعي والخوارزميات في الانتخابات وحماية نزاهة العملية الانتخابية؟

الفرضيات البحثية

تنطلق الدراسة من ثلاثة فرضيات أساسية:

- الفرضية الأولى:** يساهم الاستهداف المجهري المستند إلى الذكاء الاصطناعي في إعادة هيكلة السلوك الانتخابي عبر التأثير النفسي والسلوكي على الناخبين غير المحسومين بشكل أعمق مقارنة بالحملات التقليدية
- الفرضية الثانية:** يؤدي الغياب التنظيمي لاستخدامات الذكاء الاصطناعي التوليدي في التنافس السياسي إلى ارتفاع معدلات التضليل الممنهج وتعميق الفجوة القطبية داخل المجتمعات الديمقراطية
- الفرضية الثالثة:** توفر المقاربة التنظيمية الشاملة القائمة على الحكامة الصلبة للمنصات وشفافية الخوارزميات ضمانات قانونية أفضل لحماية الإرادة الحرة للناخب مقارنة بآليات التنظيم الذاتي
- وللتحقق من صحة هذه الفرضيات سيتم تناول الموضوع من خلال مبحثين متكاملين: الأول سأتطرق فيه للتأثير النظري والتقني للهندسة السلوكية وتوجيه الإرادة الانتخابية، من خلال الوقوف على المفاهيم والآليات التي تقوم عليها الخوارزميات وتقنيات تحليل البيانات والاستهداف المجهري، ومدى قدرتها على التأثير في السلوك والاختيارات السياسية للناخبين. بينما يخصص المبحث الثاني لدراسة النماذج التطبيقية والأطر التشريعية لمواجهة التأثير الخوارزمي في الانتخابات، وذلك من خلال تحليل بعض التجارب الدولية واستجلاء الاستجابات القانونية والتنظيمية الرامية إلى الحد من مخاطر التلاعب الرقمي وحماية نزاهة العملية الانتخابية والإرادة الحرة للناخب.

المبحث الأول: التأطير النظري والتقني للهندسة السلوكية وتوجيه الإرادة الانتخابية

تُمثل الاستحقاقات الانتخابية المعاصرة النقطة المرجعية لتجلي التحولات البنيوية التي طرأت على طبيعة الفضاء السياسي، حيث انتقلت موازين التأثير من الوسائط الإعلامية التقليدية إلى المنظومات الخوارزمية المعقدة، ولم يعد هذا التحول مجرد انتقال في الأدوات، بل هو نتاج تداخل عميق بين نظم الذكاء الاصطناعي والتنقيب عن البيانات وبين السلوك السياسي للمواطنين. وعليه يهدف هذا المبحث إلى صياغة تأطير نظري وتقني شامل لكيفية تحويل البيانات الضخمة من مجرد مدخلات رقمية خام إلى أدوات للهندسة السلوكية، وإعادة تشكيل البيئة المعرفية للناخبين وذلك من خلال مطلبين: الأول يتعلق بكيفية تحليل البيانات الضخمة والاستهداف المجهري للناخبين (Microtargeting).

أما الثاني يخصص للهندسة المعرفية: من "غرف الصدى" إلى الذكاء الاصطناعي التوليدي

المطلب الأول: البيانات الضخمة والاستهداف المجهري للناخبين (Microtargeting) :

يقوم الاتصال السياسي المعاصر على إحلال "الاستهداف المجهري السلوكي" محل "الدعاية الجماهيرية العامة" 259، وينطلق هذا النموذج من استغلال الآثار الرقمية (Digital Traces) للأنشطة الفردية، وتحويلها عبر خوارزميات التعلم الآلي إلى بروفيلات تنبؤية تُوجه الإرادة الانتخابية من خلال الآليات التالية:

259 Bodó, B., Helberger, N., & de Vreese, C. H. Political microtargeting: a pressingly necessary definition. Policy & Internet, 9(4), pp. 486.

أولاً: الأسس النظرية للتحليل النفسي الرقمي (Psychographic Profiling): تستند خوارزميات التنميط السياسي إلى دمج معالجة اللغة الطبيعية (NLP) والتعلم العميق مع نموذج الخصائص النفسية الخمس الكبرى : الانفتاح، وضمير الحي/اليقظة، والانبساط، والوفاق، والعصابية. 260 بحيث عبر تحليل السجلات الرقمية (كالإجابات، والتعليقات، ومُدد التوقف اللحظي عند المنشورات)، تستطيع الخوارزميات تقدير السمات النفسية للفرد بدرجة من الدقة تتجاوز قدرة ذويه المقربين. 261 وهكذا تُستغل هذه البيانات في تحديد نقاط الهشاشة النفسية، كنسبة النزوع نحو الخوف أو الانغلاق الفكري، لربطها بالخيارات الانتخابية المطروحة.

✓ ثانياً: تفريد الخطاب السياسي وتقويض المساحة العامة: تسمح الآليات البرمجية بالتخلي عن البرنامج السياسي الموحد لصالح إنتاج مئات الآلاف من النسخ الإعلانية الدقيقة مجهرياً (Micro-targeted Ads) الموجهة لأفراد أو مجموعات صغيرة مغلقة. 262 ويؤدي هذا التفريد إلى:

- إخفاء الخطاب السياسي عن الرقابة التنافسية: يتعذر على الخصوم السياسيين أو الهيئات الرقابية رصد الإعلانات الموجهة أو تفنيدها لكونها تُعرض في حسابات خاصة ولا تظهر للعامة.
- تفكيك الالتزام البرامجي للمرشح: يستطيع الفاعل السياسي تقديم وعود متناقضة لشرائح مختلفة دون التحسب لتبعات هذا التناقض علناً.

✓ ثالثاً: التحليل التنبؤي وتوجيه كتلة الناخبين غير المحسومين (Undecided Voters): تُركز الحملات الانتخابية قدراتها البرمجية على استهداف الناخبين الرماديين الذين يفتقرون إلى انحياز أيديولوجي صلب في الدوائر الانتخابية الحرجة. وقد أثبتت الدراسات السلوكية التطبيقية أن المحفزات الخوارزمية الفردية (Nudges) القائمة على الاستثارة النفسية تكون كافية لإحداث التحول المطلوب في سلوك هؤلاء الناخبين، مما يُغير نتائج الاقتراع الكلية دون الحاجة لإقناع الغالبية المجتمعية. 263

✓ المطلب الثاني: الهندسة المعرفية: من "غرف الصدى" إلى الذكاء الاصطناعي التوليدي لفهم أبعاد هذا التحول العميق في البنية المعرفية للمواطن، يقتضي التحليل الوقوف عند الآليات البرمجية والتقنية التي تعيد بها الفضاءات الرقمية هندسة وعي الفاعل السياسي وإدراكه للواقع، وتتجلى هذه الهندسة في ثلاثة مستويات رئيسية متداخلة: تبدأ من الخوارزميات المُسيّرة باقتصاد الانتباه، ثم تتجسم في العزلة الفكرية داخل فقاعات الترشيح، لتصل أخيراً إلى ذروتها مع التهديدات المباشرة للذكاء الاصطناعي التوليدي

أولاً: اقتصاد الانتباه وآليات تعظيم التفاعل

تُحكم المنصات الرقمية برمجياً بواسطة خوارزميات التوصية التي تستهدف إبقاء المستخدم لأطول فترة ممكنة، بغرض تعظيم العوائد الإعلانية وضمان الاستغلال التجاري للبيانات. وتؤكد الأدبيات المتخصصة أن المحتوى السياسي المحمّل بنبرة استقطابية، أو المعتمد على إثارة المشاعر الحادة (كالغضب والصدمة)، يمتلك قدرة أعلى على الانتشار السريع مقارنة بالمحتوى الرزين والتحليلي، مما يدفع بهذه المنصات إلى تقديم الخطاب المتطرف وتصديره في صدارة خيارات المادة المعروضة للناخبين. 264

ثانياً: فقاعات الترشيح وتفتيت الفضاء العام

تؤدي المعالجة الآلية لتفضيلات الناخب السابقة إلى تغذيته المستمرة بمواد تؤكد انحيازاته المسبقة وتستبعد أي رؤية مخالفة، وهو ما يُنتج ظاهرة "فقاعات الترشيح" (Filter Bubbles) "وسرعان ما تتحول هذه الفقاعات إلى "غرف صدى" (Echo Chamber)

260 Kosinski, M., Stillwell, D., & Graepel, T. Private traits and attributes are predictable from digital records of human behavior. PNAS, 110(15), pp. 5802.

261 Bodó, B., Helberger, N., & de Vreese, C. H. Political microtargeting: a pressingly necessary definition. Policy & Internet, 9(4), pp. 495.

262 Bennett, W. L., & Livingston, S. (2020). *The Disinformation Age: Politics, Technology, and Disruptive Communication*. Cambridge University Press, pp. 50.

263 Zuiderveen Borgesius, F., et al. (2018). *Online Political Microtargeting: Promises and Perils for Democracy*. Computer Law & Security Review, 34(2), pp. 258.

264 Tufekci, Z. (2017). *Twitter and Tear Gas: The Power and Fragility of Networked Protest*. Yale University Press, pp. 112.

Chambers) تمنع التفاعل الفكري وتُلغي المساحات النقاشية المشتركة بين الفصائل السياسية، الأمر الذي يرفع من حدة الاستقطاب الأيديولوجي ويحول الخصم السياسي من شريك في الخيار الديمقراطي إلى تهديد وجودي. 265

ثالثاً: الذكاء الاصطناعي التوليدي ومأزق "عائد الكاذب"

يُشكل البروز المتسارع لتقنيات الذكاء الاصطناعي التوليدي والتزييف العميق (Deepfakes) تحولاً خطيراً في قواعد اللعبة السياسية؛ حيث أصبح بمقدور الفاعلين توليد مقاطع مرئية وصوتية عالية الدقة لنسب تصريحات مفبركة للمرشحين في أوقات حاسمة من العملية الانتخابية. وتكمن الخطورة المزدوجة لهذه التقنيات فيما يُعرف بـ "عائد الكاذب" (Liars' Dividend)؛ إذ لا يقتصر الضرر على تضليل الناخبين بفبركات رقمية، بل يمتد لمنح الفاعلين السياسيين ذريعة سهلة للتشكيك في أي أدلة أو حقائق موثوقة تُسرب ضدهم بدعوى أنها مجرد محتوى مفبرك خوارزمياً. 266

المبحث الثاني: النماذج التطبيقية والأطر التشريعية لمواجهة التأثير الخوارزمي في الانتخابات

تتطلب المعالجة الأكاديمية لأثر الخوارزميات الانتقال من الأطر النظرية إلى التحليل الميداني والتنظيمي؛ إذ تُكشف النماذج التطبيقية التكتيكات البرمجية المستخدمة لتوجيه الناخبين وإرباك العملية الانتخابية. وعليه فإن هذا المبحث يهدف إلى تفكيك تلك الآليات وذلك عبر مطلبين؛ الأول يُخصص لتفحص حالات دراسية واقعية للتأثير الخوارزمي (مع التركيز على البيئة الانتخابية الأمريكية والدولية)، بينما يُكرس المطلب الثاني لإجراء دراسة مقارنة بين المقاربتين الأوروبية والأمريكية، وتقييم كفاية القواعد الانتخابية وسبل تطويرها.

المطلب الأول: النماذج التطبيقية للتأثير الخوارزمي في الاستحقاقات الانتخابية

تتنوع صور التدخل الخوارزمي بحسب التقنية المعتمدة والغاية السياسية المرجوة، حيث أظهرت التطبيقات الميدانية قدرة المنظومات البرمجية على تجاوز مجرد بث الإعلانات إلى ممارسة هندسة سلوكية وإدراكية مباشرة على الناخبين، وتتجلى هذه الممارسات في الحالات الدراسية التالية:

1. نموذج التنميط النفسي والاستهداف المجبري في الانتخابات الأمريكية (حالة "كامبريدج أناليتيكا" 2016):

تُمثل الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2016 المحطة التاريخية الأبرز لاستغلال البيانات الضخمة في التلاعب بالسلوك الانتخابي؛ حيث جرى استخلاص البيانات السلوكية لنحو 87 مليون مستخدم أمريكي على منصة "فيسبوك" وتميرها عبر خوارزميات التعلم الآلي لربطها بنموذج السمات الشخصية الخمس الكبرى (OCEAN)، بحيث مكنت هذه التقنية الحملات الانتخابية من تحديد "الناخبين غير المحسومين" (Undecided Voters) "في الولايات المتأرجحة" (Swing States) مثل بنسلفانيا وميشيغان، وتوجيه إعلانات مستترة (Dark Ads) تُخاطب المخاوف الفردية العميقة للناخبين حول الأمن والوظائف والهجرة، مما أدى لترجيح كفة الاقتراع وحسم النتائج دون خضوع تلك الرسائل للرقابة السياسية المتبادلة أو المساءلة الانتخابية. 268

2. نموذج التضليل الروسي وتوظيف البوتات في الفضاء السياسي الأمريكي (حالة انتخابات 2016 و2020):

شهد الفضاء الرقمي الأمريكي توظيفاً مكثفاً لـ "الدعاية الحاسوبية" (Computational Propaganda) "عبر استغلال خوارزميات التوصية في شبكات التواصل الاجتماعي (X) تويتر سابقاً وفيسبوك 269 وتجلى ذلك في إدارة "وكالة أبحاث الإنترنت" الروسية (IRA) لشبكات المظلمة الممتدة من الحسابات الآلية المبرمجة (Bots) والصفحات المزيفة، والتي استهدفت تضخيم الخطابات الاستقطابية

265 يلاي باريزر، فقاعة الترشيح: ما الذي يخفيه الإنترنت عنك، ترجمة: المركز القومي للترجمة القاهرة، 2018، ص. 50-72.

266 تشيسني، روبرت، وسيترون، دانييل. (2021). التزييف العميق والتهديد الجديد للترويج للزيوف. مجلة السياسة الدولية، العدد 224، ص. 140.

267 ركز الجزيرة للدراسات، نموذج التواصل السياسي لـ "كامبريدج أناليتيكا": فبركة الأخبار وهندسة الجمهور، ورقة بحثية، قسم الدراسات الإعلامية، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2018

268 إيهاب حجازي، الديمقراطية الرقمية: كيف تعيد الخوارزميات والبيانات الضخمة صياغة السياسة، (بيروت: المعهد العربي للدراسات، 2020)، ص. 92.

وتغذية النزاعات حول القضايا العرقية والاقتصادية والاجتماعية الحساسة داخل المجتمع الأمريكي. وقد أظهرت التحقيقات الاتحادية أن خوارزميات المنصات الموجهة بتعظيم التفاعل ساهمت في تصدير محتوى هذه الحسابات الوهمية إلى الواجهة (Trending Top Topics)؛ نظراً لما تثيره المواد الخلافية والإعلام التحريضي من معدلات مشاركة مرتفعة، وهو ما أدى في النهاية إلى تفويت الفضاء النقاشي العام وتعميق الانقسام الأيديولوجي عشية الاستحقاقات الانتخابية. 270

3. نموذج الجيوش الرقمية وتصنيع التفاعل الزائف (حالة البرازيل 2018 والفلبين 2022):

يعتمد هذا النموذج على استغلال الهندسة البرمجية لخوارزميات المنصات التي تُعطي أولوية للمحتوى الأكثر تفاعلاً وإثارة للمشاعر الحادة. تُدار شبكات واسعة من الحسابات الوهمية لإحداث تفاعل مكثف ومصنوع حول روايات سياسية محددة، مما يخدع الخوارزمية ويدفعها لترشيح ذلك المحتوى للجمهور العام. (Astroturfing) برز ذلك في الانتخابات الرئاسية البرازيلية عام 2018 عبر توظيف خوارزميات إعادة توجيهه في تطبيق "واتساب" لتكريس الاستقطاب، وفي الفلبين عام 2022 عبر إعادة صياغة التاريخ السياسي عبر منصتي "تيك توك" و"يوتيوب". 271

4. نموذج التزييف العميق وإرباك الساعات الأخيرة (حالة سلوفاكيا 2023 والهند 2024):

يُعد الذكاء الاصطناعي التوليدي النمط الأكثر خطورة نظراً لقدرته على فبركة الواقع السياسي. فقبل 48 ساعة من بدء الاقتراع في الانتخابات البرلمانية السلوفاكية عام 2023 (خلال فترة الصمت الانتخابي)، نُشر مقطع صوتي مفبرك بدقة بالغة لرئيس الحزب الليبرالي يناقش فيه شراء أصوات الناخبين. تسببت السرعة الخوارزمية في انتشار المقطع، مع عجز المرشح عن النفي بسبب القيود القانونية للصمت الانتخابي، مما أثر مباشرة في تكوين رأي عام مضلل عشية الاقتراع. 272

تكشف هذه التجارب وبالرغم من اختلاف سياقاتها وأدواتها، عن تحول متدرج في طبيعة التأثير الخوارزمي في الانتخابات؛ فحالة Cambridge Analytica أبرزت الانتقال من الاتصال الجماهيري إلى جمع البيانات والتنميط النفسي والاستهداف المجهري للناخبين، بينما أظهر النموذج الروسي في الانتخابات الأمريكية إمكانية توظيف الدعاية الحاسوبية والحسابات الوهمية في تضخيم الخطابات الاستقطابية والتأثير في البيئة المعلوماتية العامة. أما تجارب البرازيل والفلبين، فقد كشفت عن دور التفاعل المصطنع وشبكات الحسابات الوهمية في تضخيم روايات سياسية معينة ودفع الخوارزميات إلى إعادة توزيعها على نطاق أوسع، في حين يمثل التزييف العميق، كما في الحالة السلوفاكية، مرحلة أكثر خطورة من خلال القدرة على إنتاج محتوى سياسي زائف يصعب التحقق منه في الزمن الانتخابي الحرج. وعليه، تنتقل السلطة الخوارزمية من تحليل الناخب واستهدافه، إلى تشكيل البيئة المعلوماتية المحيطة به، ثم إلى التحكم في انتشار المحتوى وإنتاج واقع سياسي اصطناعي، بما يطرح تحديات متزايدة أمام شفافية المنافسة الانتخابية واستقلالية الإرادة السياسية ونزاهة العملية الديمقراطية.

المطلب الثاني: دراسة مقارنة بين النموذجين الأوروبي والأمريكي وآفاق الحلول التنظيمية

أبرز التطور المتسارع للتكنولوجيات الرقمية والذكاء الاصطناعي تحولات عميقة في البيئة التي تُمارس داخلها العملية الديمقراطية، ولا سيما في مجال الاتصال السياسي والانتخابات. فقد أصبحت المنصات الرقمية والأنظمة الخوارزمية جزءاً أساسياً من عملية إنتاج المعلومات السياسية وتوزيعها واستهداف الجمهور، الأمر الذي جعل تنظيم البيئة الرقمية مرتبطاً بصورة متزايدة بحماية الحقوق الأساسية وبسلامة العمليات الانتخابية. ولم يعد النقاش القانوني مقتصرًا على مسألة مشروعية المحتوى السياسي

270 Ong, J. C., & Cabañes, J. V. A. (2018). *Architects of Networked Disinformation: Behind the Scenes of Troll Farms in the Philippines*. Newton Tech4Dev Network, pp. 20–35.

271 Chesney, R., & Citron, D. (2019). *Deepfakes and the New Disinformation Threat*. Foreign Affairs, 98(1), pp. 147–155.

272 European Parliament & Council. (2016). *General Data Protection Regulation (GDPR)*. Official Journal of the European Union, L 119/1.

المنشور على الإنترنت، بل امتد ليشمل كيفية جمع البيانات الشخصية وتحليلها واستخدامها في تصنيف الناخبين وتوجيه الإعلانات السياسية إليهم²⁷³.

ويكتسب هذا التطور أهمية خاصة في ظل تنامي تقنيات الاستهداف المجبري للناخبين (Political Microtargeting)، التي تسمح بتوجيه رسائل سياسية إلى مجموعات محددة من الأفراد استناداً إلى بيانات شخصية وسلوكية، بما فيها بيانات مستخلصة أو مستنتجة من النشاط الرقمي للأفراد. وقد أقر المشرع الأوروبي صراحة بأن البيانات الشخصية، بما فيها البيانات المرصودة أو المستنتجة من النشاط الإلكتروني والتنميط السلوكي، أصبحت تستخدم في تقسيم الناخبين واستهدافهم بالرسائل السياسية، وأن هذا الاستخدام قد يمس جملة من الحقوق والحريات، بما في ذلك الحق في تكوين الرأي واتخاذ القرار السياسي وممارسة حق التصويت بصورة حرة²⁷⁴.

ومن هنا، اتجه الاتحاد الأوروبي خلال السنوات الأخيرة إلى بناء منظومة تنظيمية أكثر تفصيلاً للفضاء الرقمي، تقوم على الجمع بين حماية البيانات الشخصية، وفرض التزامات على المنصات الرقمية، وتعزيز الشفافية في الإعلانات السياسية، والحد من المخاطر التي يمكن أن تهدد النقاش العام والعمليات الانتخابية. ولا تقوم هذه المنظومة على نص تشريعي واحد، وإنما تتكون من مجموعة مترابطة من القواعد، من بينها اللائحة العامة لحماية البيانات (GDPR)، وقانون الخدمات الرقمية (Digital Services Act – DSA)، فضلاً عن اللائحة 2024/900 (EU) بشأن شفافية واستهداف الإعلانات السياسية. وتكشف هذه المنظومة عن انتقال تدريجي من مقارنة تركز أساساً على حماية البيانات إلى مقارنة أوسع تربط حماية البيانات بالشفافية الديمقراطية ونزاهة العملية الانتخابية²⁷⁵.

وتبرز أهمية اللائحة الأوروبية المتعلقة بالإعلانات السياسية بصورة خاصة، لأنها تتعامل بصورة مباشرة مع العلاقة بين البيانات الشخصية والاستهداف السياسي. فقد فرضت اللائحة شروطاً محددة لاستخدام تقنيات الاستهداف أو توزيع الإعلانات السياسية عبر الإنترنت، من بينها أن تكون البيانات قد جُمعت من الشخص المعني، وأن يكون قد قدم موافقة صريحة ومنفصلة على استخدامها لأغراض الإعلان السياسي. كما حظرت استخدام تقنيات الاستهداف التي تقوم على التنميط باستخدام الفئات الخاصة من البيانات الشخصية، ومنها البيانات التي تكشف عن الآراء السياسية. وبذلك، لا يمنع التنظيم الأوروبي الاستهداف السياسي الرقمي بصورة مطلقة، وإنما يخضعه لشروط قانونية صارمة تهدف إلى الحد من مخاطر التلاعب والتمييز وانتهاك الخصوصية.

ولا تقف المقاربة الأوروبية عند حدود تنظيم استخدام البيانات الشخصية، وإنما تمتد كذلك إلى مسألة الشفافية الخوارزمية وإدارة المخاطر الانتخابية. فقد أوجب التنظيم الأوروبي على الجهات التي تستخدم تقنيات الاستهداف في الإعلانات السياسية أن تعتمد سياسات واضحة بشأن كيفية استخدام هذه التقنيات، وأن تحتفظ بسجلات حول آلياتها ومعاييرها، وأن توفر للمستهدفين معلومات تساعد على فهم المنطق والمعايير الأساسية التي تم على أساسها استهدافهم. كما تتطلب القواعد الإفصاح عن استخدام نظام للذكاء الاصطناعي في استهداف الإعلان السياسي أو توزيعه، عند الاقتضاء.

وفي الإطار نفسه، أضاف قانون الخدمات الرقمية (DSA) بعداً آخر إلى الحزمة الأوروبية، من خلال إلزام مقدمي خدمات المنصات الإلكترونية الكبيرة جداً ومحركات البحث الكبيرة جداً بتقييم المخاطر النظامية التي قد تترتب عن تصميم خدماتهم أو طريقة تشغيلها، بما في ذلك المخاطر ذات الصلة بالخطاب المدني والعمليات الانتخابية. كما يتعين عليهم أخذ الأنظمة الخوارزمية، وخاصة

²⁷³ European Parliament and Council of the European Union. (2024). *Regulation (EU) 2024/900 of 13 March 2024 on the transparency and targeting of political advertising*. Official Journal of the European Union, L 2024/900, 20 March 2024

²⁷⁴ European Parliament and Council of the European Union. (2022). *Regulation (EU) 2022/2065 of 19 October 2022 on a Single Market for Digital Services (Digital Services Act)*. Official Journal of the European Union, L 277, 27 October 2022.

²⁷⁵ European Parliament and Council of the European Union. (2016). *Regulation (EU) 2016/679 of 27 April 2016 (General Data Protection Regulation)*. Official Journal of the European Union, L 119, 4 May 2016

أنظمة التوصية والإعلانات، في الاعتبار عند تقييم هذه المخاطر، فضلاً عن النظر في إمكانية مساهمة التضليل أو التضخيم الخوارزمي للمعلومات في إحداث آثار سلبية على المجال العام.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فتقدم مقارنة مختلفة نسبياً، بالنظر إلى المكانة المركزية التي تحتلها حرية التعبير السياسي في النظام الدستوري الأمريكي. فالتعديل الأول للدستور يوفر حماية قوية للتعبير السياسي، وقد أكدت المحكمة العليا الأمريكية مراراً أهمية هذا النوع من التعبير بالنسبة إلى عملية صنع القرار الديمقراطي. ولذلك، فإن أي تدخل حكومي في الخطاب السياسي أو في القواعد المنظمة للحملات الانتخابية يخضع لاعتبارات دستورية قوية مرتبطة بحرية التعبير والمشاركة السياسية²⁷⁶.

ولا يعني ذلك أن النظام الأمريكي يخلو من القيود أو القواعد المنظمة للانتخابات والاتصال السياسي، وإنما أن التوازن بين التنظيم والحرية يُبنى في إطار دستوري يمنح التعبير السياسي حماية واسعة. وقد بينت المحكمة العليا أن قوانين تمويل الحملات والانتخابات يمكن أن تسعى إلى حماية نزاهة العملية السياسية وتعزيز ثقة الجمهور فيها، إلا أن هذه القوانين يجب أن تراعي في الوقت نفسه الحماية التي يوفرها التعديل الأول للتعبير السياسي. ومن ثم، فإن الإشكالية في النموذج الأمريكي تتمثل بدرجة كبيرة في كيفية تحقيق التوازن بين متطلبات نزاهة العملية الانتخابية من جهة، والحدود الدستورية المفروضة على تدخل الدولة في التعبير السياسي من جهة أخرى.

وبذلك، تكشف المقارنة عن اختلاف واضح في منطلقات التنظيم وآلياته. فالاتحاد الأوروبي يتجه بصورة أكبر نحو التنظيم الوقائي والاستباقي، من خلال وضع قواعد تفصيلية تتعلق بالبيانات الشخصية والاستهداف السياسي والشفافية وإدارة المخاطر التي قد تؤثر في العمليات الانتخابية. في المقابل، تركز المقارنة الأمريكية بصورة أكبر على الحماية الدستورية الواسعة للتعبير السياسي، مع وجود قواعد تنظيمية متفرقة تتعلق بالانتخابات وتمويل الحملات وغيرها من المجالات ذات الصلة. ولا ينبغي، مع ذلك، اختزال الفرق بين النظامين في ثنائية بسيطة تقوم على «التنظيم الأوروبي» مقابل «التنظيم الذاتي الأمريكي»، لأن النظام الأمريكي يتضمن بدوره آليات قانونية وتنظيمية متعددة، كما أن التنظيم الأوروبي لا يلغي حرية التعبير السياسي، وإنما يسعى إلى تنظيم بعض الظروف التي يتم فيها استخدام البيانات والتقنيات الرقمية للتأثير في العملية السياسية.

ومن هذه الزاوية، تصبح المقارنة بين التجربتين الأوروبية والأمريكية ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى دراسة أثر الذكاء الاصطناعي والخوارزميات في السلوك الانتخابي؛ إذ تتيح الوقوف على نموذجين مختلفين في تحديد الحدود التي ينبغي أن تفصل بين حرية الاتصال السياسي من جهة، وحماية استقلالية الناخب ونزاهة العملية الانتخابية من جهة أخرى. ويمكن تلخيص أبرز أوجه الاختلاف بين المقاربتين في الجدول الآتي:

جدول: المقارنة الأوروبية والأمريكية في حكمة الخوارزميات والاستهداف السياسي وحماية الإرادة الانتخابية

معيار المقارنة	النموذج الأوروبي (الحكمة التنظيمية الصلبة)	النموذج الأمريكي (التنظيم الذاتي والسوق الحر)
الفلسفة الحاكمة	حماية الحقوق الأساسية للسيادة الرقمية ونزاهة الخيار الديمقراطي.	حماية حرية المنافسة في السوق الحرة والحرية المطلقة للتعبير.
الأطر التشريعية	اللائحة العامة لحماية البيانات (GDPR)، قانون الخدمات	التعديل الأول للدستور الأمريكي (First Amendment)، والمادة

U.S. Supreme Court. (1976). *Buckley v. Valeo*, 424 U.S. 1. <https://www.law.cornell.edu/supremecourt/text/424/1>

النموذج الأمريكي (التنظيم الذاتي والسوق الحر)	النموذج الأوروبي (الحكامة التنظيمية الصلبة)	معياري المقارنة
230 من قانون نزاهة الاتصالات (CDA).	الرقمية (DSA) ، وقانون الذكاء الاصطناعي (AI Act).	
إتاحة التتبع السلوكي والتنميط مع الاعتماد على سياسات الإفصاح الاختياري للشركات.	حظر معالجة البيانات الحساسة (السياسية والدينية) لأغراض الاستهداف إلا بموافقة صريحة ومسبقة.	حظر التنميط السياسي
ترك آليات الرقابة وإدارة المحتوى للسياسات واللوائح الداخلية النازمة لكل منصة	إلزام المنصات الكبرى بالتدقيق الخوارزمي المستقل وتقييم المخاطر الانتخابية الدورية.	الشفافية والرقابة

المصدر: تركيب شخصي للباحث

يتضح من المقارنة أن الاختلاف بين المقاربتين الأوروبية والأمريكية لا يتعلق بمجرد اختلاف في القواعد القانونية، وإنما يعكس اختلافاً أعمق في فلسفة تنظيم المجال الرقمي والانتخابي. فالمقاربة الأوروبية تتجه نحو تنظيم استباقي قائم على حماية الحقوق الأساسية وتقليل مخاطر الاستهداف السياسي غير الشفاف، وهو ما يظهر بوضوح في القيود المفروضة على استخدام البيانات الحساسة، ومتطلبات الشفافية، والالتزامات المتعلقة بتوضيح آليات الاستهداف والتقييم الدوري للمخاطر. في المقابل، تضع المقاربة الأمريكية حرية التعبير السياسي في موقع أكثر مركزية، مع الاعتماد على مجموعة من القواعد والآليات التنظيمية المتفرقة. ومن ثم، فإن الفارق الأساسي بين النموذجين يمكن تلخيصه في أن الاتحاد الأوروبي يميل إلى إعطاء الأولوية للوقاية من المخاطر الرقمية التي قد تمس الحقوق الأساسية ونزاهة العملية الديمقراطية، بينما تمنح المقاربة الأمريكية وزناً أكبر لحماية المجال الواسع للتعبير السياسي والحد من التدخل الحكومي في هذا المجال. ولا ينبغي، مع ذلك، اختزال أي من النموذجين في ثنائية بسيطة بين «التنظيم» و«عدم التنظيم»، لأن كلا النظامين يتضمن مستويات متعددة من القواعد والقيود والآليات الرقابية.

وتبرز أهمية هذه المقارنة بالنسبة إلى موضوع البحث في أن تنظيم الذكاء الاصطناعي والاستهداف الخوارزمي لا يمكن أن ينفصل عن السؤال الأوسع المتعلق بكيفية حماية استقلالية الناخب وقدرته على تكوين إرادته السياسية في بيئة رقمية تتزايد فيها قدرة الفاعلين على جمع البيانات وتحليلها وتوجيه الرسائل السياسية بصورة شخصية ومكثفة. ومن هنا يمكن الاستفادة من التجربة المقارنة في تقييم مدى ملاءمة الأطر القانونية القائمة في المغرب لمواجهة المخاطر الجديدة المرتبطة بالذكاء الاصطناعي والإعلانات السياسية الرقمية، مع مراعاة الخصوصيات الدستورية والمؤسسية والقانونية للنظام المغربي.

خاتمة:

تخلص هذه الدراسة إلى أن توظيف المنظومات الخوارزمية وتقنيات الذكاء الاصطناعي في الاستحقاقات الانتخابية لم يعد مجرد تطوير وسائل لأدوات الدعاية السياسية، بل تحول إلى تهديد بنيوي يمس جوهر الديمقراطية التمثيلية ومبدأ الإرادة الحرة للناخبين. لقد أدى الاستهداف المجري والتنميط النفسي السلوكي إلى نقل الخطاب السياسي من الفضاء العام المفتوح إلى بيئات فردية مغلقة تُمارس فيها الهندسة السلوكية بعيداً عن الرقابة والمناظرة العلنية، بينما يفرض الذكاء الاصطناعي التوليدي عبر التزييف العميق تحدياً إدراكياً يُعطل الفاعلية التقليدية للقواعد الانتخابية القائمة على الضبط الزمني والجغرافي. كما أظهر التحليل المقارن حتمية الحكامة الصلبة القائمة على حماية الحقوق الأساسية كما في النموذج الأوروبي، مقابل قصور آليات التنظيم الذاتي المتبعة في النموذج الأمريكي أمام هيمنة الشركات التكنولوجية.

ولضمان صيانة النزاهة الانتخابية وحماية النموذج الديمقراطي، توصي الدراسة بضرورة إلزام المنصات الرقمية بالشفافية الخوارزمية التامة وفتح آليات التوصية للتدقيق المستقل، وإنشاء سجلات علنية لحظية للإعلانات السياسية تبيّن هوية الممول ومعايير الاستهداف، وفرض تقنيات البصمة الرقمية على المحتوى المولد آلياً لتقويض آثار التزييف، إلى جانب دعم منصات تقصي الحقائق وتنمية الوعي النقدي لدى المواطنين عبر التربية الإعلامية.

وبناءً على المخرجات التحليلية للدراسة وتصارع الوتيرة التكنولوجية مع المهل التشريعية، يبرز السؤال المفتوح المستقبلي: إلى أي مدى يمكن للأطر التشريعية الوطنية والدولية الصمود أمام الجيل القادم من نماذج الذكاء الاصطناعي الفائقة دون المساس بجوهر حرية التعبير وحركة الفضاء الرقمي المفتوح؟

الهوامش:

مراجع باللغة العربية:

- الجمال، عصام، الذكاء الاصطناعي وتأثيره على العملية الديمقراطية والانتخابات: دراسة تحليلية في الضوابط والأطر القانونية. المجلة العربية للعلوم السياسية والقانونية، العدد 14، السنة 2022.
- شريف محمد عبد السلام، تعدين البيانات والاستهداف المجري للناخبين في الحملات الانتخابية الحديثة: دراسة في الاتصال السياسي الرقمي. المجلة المصرية لترشيد الإعلام، العدد 58 السنة 2021.
- العجمي خالد بن فهد، التزييف العميق وتضليل الرأي العام: التحديات القانونية والأخلاقية للذكاء الاصطناعي التوليدي في المجال السياسي. مجلة الحقوق والعلوم القانونية، العدد: 11، السنة: 2023.
- يلاي باريزر، فقاعة الترشيح: ما الذي يخفيه الإنترنت عنك، ترجمة: المركز القومي للترجمة القاهرة، 2018.
- تشيسني، روبرت، وسيترون، دانييل. (2021). التزييف العميق والتهديد الجديد للترويج للزيوف. مجلة السياسة الدولية، العدد 224
- ركز الجزيرة للدراسات، نموذج التواصل السياسي لـ "كامبريدج أناليتيكا": فبركة الأخبار وهندسة الجمهور، ورقة بحثية، قسم الدراسات الإعلامية، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، 2018)
- إيهاب حجازي، الديمقراطية الرقمية: كيف تعيد الخوارزميات والبيانات الضخمة صياغة السياسة، (بيروت: المعهد العربي للدراسات، 2020).

مراجع باللغة الإنجليزية:

- Bodó, B., Helberger, N., & de Vreese, C. H. (2017). *Political microtargeting: a pressingly necessary*

definition. Policy & Internet, 9(4).

- Kosinski, M., Stillwell, D., & Graepel, T. (2013). Private traits and attributes are predictable from digital records of human behavior. PNAS, 110(15).
- Bodó, B., Helberger, N., & de Vreese, C. H. (2017). *Political microtargeting: a pressingly necessary definition*. Policy & Internet, 9(4).
- Bennett, W. L., & Livingston, S. (2020). *The Disinformation Age: Politics, Technology, and Disruptive Communication*. Cambridge University Press.
- Zuiderveen Borgesius, F., et al. (2018). *Online Political Microtargeting: Promises and Perils for Democracy*. Computer Law & Security Review, 34(2).
- Tufekci, Z. (2017). *Twitter and Tear Gas: The Power and Fragility of Networked Protest*. Yale University Press.
- Woolley, S. C., & Howard, P. N. (2019). *Computational Propaganda: Political Parties, Politicians, and Automated Networks on Social Media*. Oxford University Press.
- Ong, J. C., & Cabañes, J. V. A. (2018). *Architects of Networked Disinformation: Behind the Scenes of Troll Farms in the Philippines*. Newton Tech4Dev Network.
- Chesney, R., & Citron, D. (2019). *Deepfakes and the New Disinformation Threat*. Foreign Affairs, 98(1).
- European Parliament & Council. (2016). *General Data Protection Regulation (GDPR)*. Official Journal of the European Union, L 119/1.
- European Parliament and Council of the European Union. (2024). *Regulation (EU) 2024/900 of 13 March 2024 on the transparency and targeting of political advertising*. Official Journal of the European Union, L 2024/900, 20 March 2024.
- European Parliament and Council of the European Union. (2022). *Regulation (EU) 2022/2065 of 19 October 2022 on a Single Market for Digital Services (Digital Services Act)*. Official Journal of the European Union, L 277, 27 October 2022.
- European Parliament and Council of the European Union. (2016). *Regulation (EU) 2016/679 of 27 April 2016 (General Data Protection Regulation)*. Official Journal of the European Union, L 119, 4 May 2016.
- U.S. Supreme Court. (1976). *Buckley v. Valeo*, 424 U.S. 1. <https://www.law.cornell.edu/supremecourt/text/424/1>